مُخْتَصَرُ
فَضَائِلِ القُرْآن

للعلامة الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثيرٍ الدمشقي
(٧٠٠- ٧٧٤)

قام باختصاره
خالد بن محمد بن عبد العزيز اليحيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن كتب الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله من أنفع الكتب وأغزرها فوائد، والسِّمة الغالبة لكتبه رحمه الله طول النَّفَس في استيعاب روايات الحديث والآثار بأسانيدها، ولعل هذا من أسباب كثرة المختصرات لتفسيره الشهير.

ومن جملة كتبه النافعة: كتابُ فضائل القرآن، والذي شرح فيه كتابَ فضائل القرآن من صحيح البخاري.

والكتاب فيه من الإطالة والاستطراد والاستشهاد بالأحاديث والآثار، الصحيح منها والضعيف أحيانًا، ما يدعو إلى اختصاره؛ لتقريبه لعموم المتعلمين، وقد استعنت بالله في القيام بهذا الأمر.

ويتلخص العمل في هذا المختصر على النحو الآتي:

-حذف أسانيد أحاديث صحيح البخاري وغيرها من الأحاديث التي يذكرها ابن كثيرٍ، والاقتصار على من رُوي الحديث عنه.

-حذف المكرر من الشواهد والمتابعات.

-الاجتهاد في المحافظة على عبارة ابن كثيرٍ بنصها.

-وضع كلمة «باب» قبل ترجمة البخاري؛ إذ نقل ابن كثيرٍ الترجمة بدون أن تسبق بكلمة: «باب».

-جعل ما كان من صحيح البخاري من تراجم وأحاديث وآثار بالأسود الغامق.

-عزو الآيات إلى سورها مع ذكر رقمها في المصحف.

-تخريج الأحاديث والآثار بشكلٍ موجزٍ يؤدي الغرض.

هذا وإن الأحاديث التي وردت في كتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري المتعلقة بفضائل السور لم يذكرها ابن كثير في كتابه هذا، وإنما ذكرها عند سورها في تفسيره الشهير[1].

وأسأل الرحمن الرحيم أن يجعل هذا المختصر خالصًا لوجهه، نافعًا، مباركًا؛ إن ربي غني كريم.

---

(١) أفاد هذا: د. سليمان بن إبراهيم اللاحم في كتابه منهج ابن كثير في التفسير (ص٥٩).

كتاب فضائل القرآن

باب كيف نزول الوحي؟ وأول ما نزل

قال ابن عباسٍ: «المهيمن: الأمين، القرآن أمين على كل كتابٍ قبله»(١).

قول ابن عباسٍ في تفسير المهيمن: إنما يريد به البخاري قولَه تعالى في المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه} [المائدة: ٤٨] وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو مهيمن هيمنةً، وهو عليه مهيمن، وفي أسماء الله تعالى: الْمُهَيْمِنُ، وهو الشهيد على كل شيءٍ، الرقيب الحفيظ بكل شيءٍ.

عن أبي سلمة، قال: أخبرتني عائشة، وابن عباسٍ قالا: «لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرًا»(٢).

وعن عكرمة، عن ابن عباسٍ، قال: «أُنزل القران جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنةً»، ثم قرأ: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء:١٠٦] وإسناده صحيح(٣).

وأما إقامته بالمدينة عشرًا، فهذا مما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة، فالمشهور ثلاث عشرة سنةً؛ لأنه عليه السلام أُوحي إليه وهو ابن أربعين سنةً، وتوفى وهو ابن ثلاثٍ وستين سنةً على الصحيح. ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشر اختصارًا في الكلام؛ لأن العرب كثيرًا ما يحذفون الكسور في كلامهم، أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل عليه السلام به عليه السلام؛ فإنه قد

---

(١)صحيح البخاري معلقًا قبل حديث (٤٩٧٨).

(٢)صحيح البخاري (٤٩٧٨).

(٣)أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٠٨).

روى الإمام أحمد أنه قُرِن به عليه السلام ميكائيل في ابتداء الأمر، يُلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قُرِن به جبريل[1].

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن، أنه أُبتدئ بنزوله في مكانٍ شريفٍ، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمنٍ شريفٍ، وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان، ولهذا يُستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ نزوله فيه، ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنةٍ في شهر رمضان، فلما كانت السنة التي توفي فيه عارضه به مرتين تأكيدًا وتثبيتًا.

وأيضًا ففي هذا الحديث بيان أن من القرآن مكي، ومنه مدني؛ فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة.

وقد أجمعوا على سورٍ أنها من المكي، وأُخَر أنها من المدني، واختلفوا في أُخَر.

وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عُسرٌ ونظرٌ.

ولكن قال بعضهم: كل سورةٍ في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية، إلا البقرة وآل عمران.

وكل سورةٍ فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فهي مدنية.

وما فيه: {يَا أَيُّهَا النَّاس} فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكي، وقد يكون مدنيًّا، كما في البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين} [البقرة: ١٦٨].

(١)أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٣٢) مرسلًا عن عامر الشعبي، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٠): إسناده صحيح إلى الشعبي.

ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين: مرةً بالمدينة ومرةً بمكة.

ومنهم من يستثني من المكي آياتٍ، يدَّعي أنها من المدني، كما في سورة الحج وغيرها.

والحق في ذلك ما دلَّ عليه الدليل الصحيح.

عن أبي عثمان، قال: «أُنبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ (من هذا؟) قالت: هذا دحية، فلما قام، قالت: والله ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة النبي ﷺ بخبر جبريل» قيل لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ قال: من أسامة بن زيدٍ[1].

الغرض من ايراده هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمدٍ ﷺ جبريل عليه السلام، وهو ملك كريم، ذو وجاهةٍ وجلالةٍ ومكانةٍ، كما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير: ١٩-٢٢] فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما.

وفى الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة رضى الله عنها، كما بينه مسلم رحمه الله؛ لرؤيتها هذا الملَك العظيم، وفضيلةٌ أيضًا لدحية بن خليفة الكلبي؛ وذلك أن جبريل عليه السلام كثيرًا ما كان يجيء إلى رسول الله ﷺ على صورته، وكان جميل الصورة رضى الله عنه.

عن أبى هريرة، قال: قال النبي ﷺ: (ما مِن الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[2].

في هذا الحديث فضيلةٌ عظيمةٌ للقرآن المجيد على كل معجزةٍ أُعطيها نبيٌ من الأنبياء، وعلى كل كتابٍ أنزله؛ وذلك أن معنى الحديث: ما من نبيٍ إلا أُعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلًا على تصديقه فيما جاءهم به، واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٠).

(٢)صحيح البخاري (٤٩٨١).

تبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانه، وأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ، فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيًا منه إليه منقولًا إلى الناس بالتواتر، ففي كل حينٍ هو كما أنزل، فلهذا قال: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا) وكذلك وقع؛ فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء؛ لعموم رسالته، ودوامها الى قيام الساعة واستمرار معجزته، ولهذا قال الله تبارك وتعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، وقال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨] ثم تقاصر معهم إلى عشرِ سورٍ منه، فقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: ١٣]، ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورةٍ من مثله فعجزوا، فقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين} [يونس: ٣٨]، وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية، كما ذكرنا في المدنية أيضًا، كما في سورة البقرة حيث يقول تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٣-٢٤]، وأخبر أنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضًا. هذا وهم أفصح الخلق، وأعلمُهم بالبلاغة والشعر، وقريظ الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله ما لا قِبل لأحدٍ من البشر به، من الكلام الفصيح البليغ الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة، عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة المحكمة، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥].

عن أنس بن مالكٍ، قال: «إن الله تَابَعَ الوحي على رسوله ﷺ قبل وفاته، حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفى رسول الله ﷺ بعده»[1].

ومعناه: أن الله تعالى تَابَعَ نزول الوحي على رسوله ﷺ شيئًا بعد شيءٍ، كل وقتٍ بما يحتاج اليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملَك أول مرةٍ بقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٢).

[العلق: ١]، فإنه استلبث الوحي بعدها حينًا، يقال: قريبًا من سنتين أو أكثر، ثم حمي الوحي وتتابع، وكان أول شيءٍ نزل بعد تلك الفترة: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ١-٢].

عن جندبٍ، قال: «اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلةً أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: {وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}»[١].

ومناسبة ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن، أن الله تعالى لَهُ برسوله ﷺ عنايةٌ عظيمة، ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعًا عليه ولم يقطعه عنه، ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرَّقًا؛ ليكون ذلك أبلغ في العناية والإكرام.

باب نزل القرآن بلسان قريشٍ والعرب، {قرآنا عربيا} {بلسان عربي مبين}

عن أنس بن مالكٍ، قال: «فأمر عثمانُ بن عفان زيدَ بن ثابتٍ وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربيةٍ من عربية القرآن، فاكتبوه بلسان قريشٍ؛ فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا»[٢].

مقصود البخاري أن القرآن نزل بلغة قريشٍ، وقريشٌ خلاصة العرب، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «لا يملينَّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريشٍ أو غلمان ثقيفٍ» وإسناده صحيح[٣].

وعن عبد الله بن فَضالة، قال: «لما أراد عمر أن يكتب الإمام، أقعدَ له نفرًا من أصحابه، وقال: «إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر؛ فإن القرآن نزل بلغة رجلٍ من مضر ﷺ»[٤].

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٢٣).

(٢)صحيح البخاري (٤٩٨٤).

(٣)أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص: ٦٥).

(٤)أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص: ٦٣).

وقد قال الله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون} [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: ١٠٣].

عن يعلى بن أمية، أنه كان يقول: «ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة عليه ثوب قد أظل عليه، ومعه ناس من أصحابه، إذ جاءه رجل مُتَضمِّخ بطيبٍ، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجلٍ أحرم في جُبَّةٍ، بعد ما تضمَّخ بطيبٍ؟ فنظر النبي ﷺ ساعةً، فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى: أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسَه، فإذا هو مُحَمَّر الوجه، يَغِطُّ كذلك ساعةً، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: (أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا) فالتُمس الرجل فجيء به إلى النبي ﷺ، فقال: (أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مراتٍ، وأما الجُبَّة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك)[١].

لا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولو ذُكِرَ في الترجمة التي قبلها لكان أظهر وأبين.

فائدة جليلة حسنة

في الصحيحين عن أنسٍ، قال: «جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أُبيُّ بن كعبٍ، ومعاذ بن جبلٍ، وزيد بن ثابتٍ، وأبو زيدٍ، فقيل له: من أبو زيدٍ؟ قال: أحد عمومتي»[٢].

وفي لفظٍ للبخاريّ عن أنسٍ، قال: «لم يجمع القرآن غير أربعةٍ: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبلٍ، وزيد بن ثابتٍ، وأبو زيدٍ، ونحن ورثناه»[٣].

قلت: أبو زيدٍ هذا ليس بمشهورٍ؛ لأنه مات قديمًا، وقد ذكروه في أهل بدرٍ، وسماه بعضهم: سعيد بن عبيدٍ.

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٥).

(٢)صحيح البخاري (٣٨١٠) صحيح مسلم (٢٤٦٥).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٠٤).

ومعنى قول أنسٍ: لم يجمع القرآن، يعني: من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن: كالصدِّيق، وابن مسعودٍ، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله: قد عُلِمَ بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدَّم أبا بكرٍ في مرض الموت ليصلي بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: (ليؤم الناس أقرؤهم)[1] فلو لم يكن الصديق أقرأَ القوم، لما قدَّمه عليهم.

وحكى القرطبيُّ في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكرٍ الباقلاني، أنه قال بعد ذكره حديث أنس بن مالكٍ هذا: «فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن: عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقول أنسٍ: لم يجمعه غير أربعةٍ؛ يحتمل أنه لم يأخذه تلقيًا من فِيْ رسول الله غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعضٍ. قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم».

قال القرطبي: «لم يذكر القاضي ابنَ مسعودٍ، وسالمًا مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن».

باب جمع القرآن

عن زيد بن ثابتٍ قال: «أرسل إليَّ أبو بكرٍ مقتلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكرٍ: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استَحرَّ بقرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خيرٌ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكرٍ: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجمعه. واللهِ لو كلفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان عليَّ أثقل مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: هو والله خيرٌ، فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكرٍ

(١)أخرجه مسلم (٦٧٣) عن أبي مسعودٍ الأنصار ﷺ بلفظ: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله).

وعمر رضى الله عنهما، فتتبَّعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} حتى خاتمة براءة، فكانت الصُّحف عند أبي بكرٍ حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر ﷺ[1].

هذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق رضى الله عنه؛ فإنه أقامه الله تعالى بعد النبي ﷺ مقامًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، قاتل الاعداء من مانعي الزكاة والمرتدين والفرس والروم، ونفَّذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، وردَّ الأمر إلى نصابه، بعد الخوف من تفرُّقه وذهابه، وجمعَ القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكَّنَ القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، فجمع الصديق الخير وكفَّ الشرور رضي الله عنه وأرضاه، ولهذا رُوِيَ عن غير واحدٍ من الأئمة منهم وكيع وابن مهدي وقَبيصة، عن سفيان الثوري، عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، عن عبد خيرٍ، عن علي بن أبى طالبٍ رضى الله عنه أنه قال: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكرٍ؛ إن أبا بكرٍ كان أول من جمع القرآن بين اللوحين»[2]، وإسناده صحيح.

وكان عمر رضى الله عنه هو الذي تنبَّه لذلك لما استَحرَّ القتل بالقرَّاء، أي: اشتد القتل وكثر في قرَّاء القرآن يوم اليمامة، يوم قتال مسيلِمة الكذاب وأصحابه من بنى حنيفة، بأرض اليمامة في حديقة الموت. وذلك أن مسيلمة التفَّ معه من المرتدين قريب من مائة ألفٍ، فجهَّزَ الصديق لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفًا، فالتقوا معهم، فانكشف الجيش الإسلامي؛ لكثرة مَن فيه من الأعراب، فنادى القرَّاء من كبار الصحابة: يا خالد خلصنا، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب، فتميزوا منهم وانفردوا، فكانوا قريبًا من ثلاثة آلافٍ، ثم صدقوا الحملة وقاتلوا قتالًا شديدًا، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم، حتى فتح الله عليه، وولَّى جيش الكفار فارًّا، واتبعتهم السيوف المسلمة في أقفيتهم قتلًا وأسرًا؛ وقتل الله مسيلِمة وفرَّق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام. ولكن قُتِلَ من القراء يومئذٍ قريب من خمسمائةٍ ﷺ، فلهذا أشار

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٦).

(٢)أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص: ٤٩).

عمر على الصِّديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال، فإذا كُتِبَ وحُفِظَ صار ذلك محفوظًا، فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجعه الصديق قليلًا ليستثبت الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابتٍ في ذلك، ثم صار إلى ما رأياه، رضى الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابتٍ الأنصاري.

وقول زيدٍ: «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال» العسب: جمع عسيبٍ، قال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فُويقَ الكَرَب، لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف. واللِّخاف: جمع لخفةٍ، وهي القطعة من الحجارة مستَدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب، وغير ذلك مما يمكنهم الكتابة عليه بما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلَّقاه زيد، هذا عن عسبه، وهذا من لِخافه، ومن صدر هذا، أي: من حفظه، وكانوا أحرص شيءٍ على أداء الأمانات، وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده، كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧] ففعل صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: (إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت؛ فجعل يشير بأصبعه إلى السماء عليهم ويقول: (اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد) رواه مسلم، عن جابرٍ[١].

وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب، وقال: (بلغوا عني ولو آيةً)[٢]، يعنى: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آيةٍ واحدةٍ، فليؤدها إلى من وراءَه، فبلَّغوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآنًا، والسنة سنةً، لم يَلبسوا هذا بهذا. ولهذا قال عليه السلام: (من كتب عني سوى القرآن فليمحه)[٣]، أي: لئلَّا يختلط بالقرآن، وليس معناه أن لا يحفظوا السنة ويروووها.

---

(١)صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢)أخرجه البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٣)أخرجه مسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، ولله الحمد والمنة.

فكان الذي فعله الشيخان أبو بكرٍ وعمر رضى الله عنهما من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لئلَّا يذهب منه شيء بموت من تلقَّاه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده، فكانت عنده محروسةً معظَّمَةً مكرمةً، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين؛ لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته، وكانت عند أم المؤمنين حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله.

عن أنس بن مالكٍ، قال: «إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان بن عفان رضى الله عنهما، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرْمِينية وأذرْبيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها، ثم نردها إليكِ، فأرسلتْ بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابتٍ وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابتٍ في شيءٍ من القرآن، فاكتبوه بلسان قريشٍ؛ فإنما أُنزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُقٍ بمصحفٍ مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يحرق» قال ابن شهابٍ الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابتٍ، سمع زيد بن ثابتٍ قال: «فقدت آيةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابتٍ الأنصاري: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فألحقناها في سورتها في المصحف»[1].

(١)صحيح البخاري (٤٩٨٧).

وهذا أيضًا من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ؛ فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس على قراءةٍ واحدةٍ؛ لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن عبد الله بن مسعودٍ شيء من التغضُّبِ بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف، وأمر أصحابه بغلِّ مصاحفهم لمّا أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعودٍ إلى الوِفاق، حتى قال علي بن أبي طالبٍ: «لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا»[1].

فاتفق الأئمة الأربعة أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)[2].

وكان السبب في هذا: حذيفة بن اليمان رضى الله عنه؛ فإنه لما كان غازيًا في فتح أرْمِينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق، وجعل حذيفة يسمع منهم قراءاتٍ على حروفٍ شتَّى، ورأى منهم اختلافًا كثيرًا وافتراقًا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه، وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

ترتيب الآيات والسور[3]

كان عثمان رضي الله عنه –والله أعلم– رتَّبَ السور في المصحف، أما ترتيب الآيات في السور فأمر توقيفي متلقى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا ليس لأحدٍ أن يقرأ القرآن إلا مرتبًا آياته، فإن نكَّسه أخطأ خطأً كبيرًا، وأما ترتيب السور فمستحب؛ اقتداءً بعثمان ﷺ.

والأَولى إذا قرأ أن يقرأ متواليًا، كما قرأ ﷺ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، وتارةً بـ {سَبِّحِ}، و{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة} فإن فرق جاز، كما صَحَّ أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد بـ

(١)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ٢٨٤) وابن أبي داود في المصاحف (ص: ٤٩).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) عن العِرباض بن سارية ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) هذا العنوان من وضع المختصِر.

"قاف" و{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} رواه مسلم، عن أبي واقدٍ[١]، وفي الصحيحين عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ، كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة {ألم} السجدة، و{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ}[٢].

وإن قَدَّمَ بعض السور على بعضٍ، جاز أيضًا؛ فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ، قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم[٣].

باب أُنزل القرآن على سبعة أحرفٍ

عن ابن عباسٍ، أن رسول الله ﷺ قال: (أقرأني جبريل عليه السلام على حرفٍ، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزديني حتى انتهى إلى سبعة أحرفٍ)[٤].

وعن أبي بن كعب، قال: «كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءةً سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ، فَقَرَآ، فحسَّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غَشِيَني، ضرب في صدري، فَفِضتُّ عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فَرَقًا، فقال لي: (يا أُبي، أُرسِلَ إليَّ أن اقرأ القرآن على حرفٍ، فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إليَّ الثانية، اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إليَّ الثالثة، اقرأه على سبعة أحرفٍ، فلك بكل رَدّةٍ رددتُكَها مسألةً تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليومٍ يرغب إليَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم ﷺ)[٥].

---

(١)صحيح مسلم (٨٩١).

(٢)صحيح البخاري (٨٩١) صحيح مسلم (٨٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣)صحيح مسلم (٧٧٢).

(٤)صحيح البخاري (٤٩٩١).

(٥)أخرجه مسلم (٨٢٠).

هذا الشك الذى حصل لأُبَيٍّ في تلك الساعة هو -والله أعلم- السبب الذى لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغٍ وإعلامٍ ودواءٍ لما كان حصل له سورة {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا} إلى آخرها[1]؛ لاشتمالها على قوله: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}.

وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه عليه السلام من الحديبية على عمر بن الخطاب[2]، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ، ثم لأبي بكر الصديق، وفيها قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [الفتح: ٢٧].

فصل

قال أبو عبيدٍ: ليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجهٍ، وهذا شيء غير موجودٍ، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغاتٍ متفرقةٍ في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلةٍ، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما كذلك إلى السبعة.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: صحَّ وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب، البعض منها دون الجميع؛ إذ كان معلومًا أنَّ ألسنتها ولغاتها أكثر من سبعٍ بما يعجز عن إحصائه.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أن الشارع رخَّصَ للأمة التلاوة على سبعة أحرفٍ، ثم لما رأى الامام أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم، جمعهم على حرفٍ واحدٍ، وهو هذا المصحف الإمام.

قال: واستوسقت له الأمَّة على ذلك، بل أطاعت ورأتْ أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامُها العادل في تركها، طاعةً منها له، ونظرًا منها

---

(١)أخرجه البخاري (٣٨٠٩) ومسلم (٧٩٩) عن أنسٍ ﷺ.

(٢)أخرجه البخاري (٣١٨٢) صحيح مسلم (١٧٨٥).

لأنفسها ولمن بَعْدَهَا من سائر أهل ملتها، حتى درستْ من الأمة معرفتُها، وتعفَّت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحدٍ إلى القراءة بها؛ لدثورها وعُفُوّ آثارها.

فإن قال من ضعفتْ معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءةٍ أقرأهموها رسول الله ﷺ، وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجابٍ وفرضٍ، وإنما كان أمر إباحةٍ ورخصةٍ؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم، لوجب أن يكون العمل بكل حرفٍ من تلك الأحرف السبعة عند من تقوم بنقله الحجة، ويَقطع خبرُه العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضحُ الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيَّرين.

عن عروة بن الزبير، أن المسْوَر بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبدٍ القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: «سمعت هشام بن حكيمٍ يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروفٍ كثيرةٍ لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فَكِدتُ أساوره في الصلاة، فتصبَّرت حتى سلَّم فلببَّتُه بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: اقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلتُ: كذبتَ؛ فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروفٍ لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: (أرسله، اقرأ يا هشام) فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال ﷺ: (كذلك أُنزلت)، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: (كذلك أُنزلت؛ إن القرآن أنزل على سبعة أحرفٍ، فاقرؤوا ما تيسر منه)[1].

اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف، وما أريد منها على أقوالٍ، قال أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصاريُّ القرطبيُّ المالكيُّ في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولًا، ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبَّان البُسْتِيّ، ونحن نذكر منها خمسة أقوالٍ. ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا مورده ملخَّصًا.

فالأول: وهو قول أكثر أهل العلم، منهم: سفيان بن عُيَيْنَة وعبد الله بن وهبٍ وابن جريرٍ والطحاوي، أن المراد سبعة أوجهٍ من المعاني المتقاربة بألفاظٍ مختلفةٍ، نحو: أَقْبِلْ وتعال وهَلُمَّ.

(١)صحيح البخاري (٤٩٩٢).

وقال الطحاوي: وأَبْيَنُ ما ذُكِرَ في ذلك حديث أبي بكرة، قال: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرفٍ، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرفٍ، فقال: اقرأ فكلٌّ كافٍ شافٍ، إلا أن تخلط آية رحمةٍ بآية عذابٍ، أو آية عذابٍ بآية رحمةٍ، على نحو: هَلُمَّ وتعال وأقبل، واذهب وأسرع وعَجِّل»[1]. وروى ورقاء عن ابن أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن أُبَيِّ بن كعبٍ أنه كان يقرأ: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا " نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} للذين أمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخِّرونا، للذين آمنوا أرقبونا. وكان يقرأ: {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ} : "مروا فيه"، "سعوا فيه".

وقد ادَّعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ذلك كان رخصةً في أوَّل الأمر، ثم نُسِخَ بزوال العذر وتَيَسُّر الحفظ وكثرة الضبط وتعلُّم الكتابة. قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جَمَعَهَم على قراءةٍ واحدةٍ أميرُ المؤمنين عثمان بن عفان، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور بإتباعهم، وإنما جمعهم عليها؛ لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تَفَرُّقِ الأمة، وتكفير بعضهم بعضًا، فرتَّبَ لهم المصاحف الأئمة على العَرْضَةِ الأخيرة، التي عارض بها جبريلُ رسولَ الله ﷺ في آخر رمضان كان من عمره ﷺ، وعزم عليهم أن لا يقرؤوا بغيرها، وأن لا يتعاطَوْا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أدت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاث المجموعة، حين تتابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيناه عليهم، وأمضاه عليهم. وكذلك كان ينهى عن المتعة في أشهر الحج؛ لئلَّا تُقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج، وقد كان أبو موسى يفتي بالتمتع، فترك فتياه؛ اتباعًا لأمير المؤمنين، وسمعًا وطاعة للأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرفٍ، وليس المراد أن جميعه يُقرأ على سبعة أحرفٍ، ولكن بعضه على حرفٍ، وبعضه على حرفٍ آخر. قال الخطَّابي: وقد يُقرأ بعضه بالسبع لغات،

---

(١)أخرجه أحمد (٢٠٥١٤) وقال في مجمع الزوائد (٧/ ١٥١): «فيه علي بن زيد بن جُدعان، وهو سيئ الحفظ، وقد توبع، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

كما في قوله: {وَعَبَدَ الطَّاغُوت} و{يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ}. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيدٍ، واختاره ابن عطية.

وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: «إنه نزل بلسان قريشٍ» أي: معظمُه، ولم يقم دليلٌ على أن جميعه بلغة قريشٍ كله، قال الله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، ولم يقل: قرشيًّا، قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً، يعنى: حجازها ويمنها.

القول الثالث: إن لغات القرآن السَّبْع منحصرةٌ في مُضَرَ على اختلاف قبائلها خاصةً؛ لقول عثمان: «إن القرآن نزل بلغة قريشٍ»، وقريش هم بنو النضر بن الحارث، على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع: وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء، أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء؛ منها ما تتغيَّر حركته ولا تتغيَّر صورته ولا معناه، مثل: {وَيَضِيقُ صَدْرِي} [الشعراء: ١٣] "ويضيقَ". ومنها ما لا تتغيَّر صورته ويختلف معناه، مثل: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} [سبأ: ١٩] "باعدَ". وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف، مثل: {نُنْشِزُهَا} وننشرها. أو بالكلمة مع بقاء المعنى، مثل: {كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: ٥]، أو: "كالصوف المنفوش". أو باختلاف الكلمة واختلاف المعنى، مثل: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} [الواقعة: ٢٩]، "وطلع منضود". أو بالتقدم والتأخر: مثل {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: ١٩] أو: "سكرة الحق بالموت". أو بالزيادة، مثل: {تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَة} أنثى. "وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين" [الكهف: ٨٠]، "فإن الله بعد اكراههن لهن غفور رحيم" [النور: ٣٣].

فصل

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبى صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع، ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرفٍ واحدٍ من السبعة، وهو الذي جَمَع عليه عثمان المصحف، ذكره ابن النحاس وغيره.

قال القرطبي: وقد سوَّغ كلُّ واحدٍ من القُرَّاء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه؛ لأنه رآها أحسن والأولى عنده، قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صحَّ عن هؤلاء الأئمة فيما رَوَوْه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات، واستمَرَّ الاجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله من حفظه الكتاب.

باب تأليف القرآن

عن يوسف بن ماهَك قال: «إني عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، اذ جاءها عراقي، فقال: أيُّ الكفن خير؟ قالت: ويحك، ما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفكِ، فقالت: لِمَ؟ قال: لَعَلِّي أؤلف القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلفٍ، قالت: وما يضرُّك أيه قرأت قَبْلُ؟ إنما نزل أوَّلَ ما نزل منه سورة من المفصَّلِ فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيءٍ: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمدٍ ﷺ، وإني لجارية ألعب: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السور»[1].

المراد من التأليف ههنا ترتيب سوَرِه. وهذا العراقي سأل أولًا عن أيّ الكفن خيرٌ، فأخبرته عائشة رضى الله عنها أن هذا مما لا ينبغي أن يُعْتَنى بالسؤال عنه، ولا القصد له ولا الاستعداد؛ فإن في هذا تكلفًا لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصِفون أهل العراق بالتعنُّت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب، فقال ابن عمر: «انظروا إلى أهل العراق، يسألون عن دم البعوض، وقد قتلوا ابنَ بنت رسول الله ﷺ!»[2]، ولهذا لم تبالغ معه عائشة رضى الله عنها في الكلام؛ لئلَّا يظن أن ذلك أمرٌ مهمٌّ، وإلا فقد قال رسول الله ﷺ: (البسوا من ثيابكم البياض، وكفنوا فيها موتاكم؛ فإنها أطهر وأطيب)[3].

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٩٣).

(٢)أخرجه البخاري (٣٧٥٣).

(٣)أخرجه الترمذي (٩٩٤) عن ابن عباسٍ رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم سألها عن ترتيب القرآن، فانتقل إلى سؤالٍ كبيرٍ، وأخبرها أنه يُقرأ غير مؤلفٍ، أي: مرتَّب السور، وكأن هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان ﷺ إلى الآفاق المصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم، ولهذا أخبرته أنه لا يضرك بأي سورةٍ بدأتَ، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار، وهذه إن لم تكن {اقْرَأْ} [العلق: ١]، فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنسٍ لسور المفَصَّل، التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق، أُمروا ونُهوا بالتدريج أولًا فأولًا، وهذا من حكمة الله ورحمته.

ومعنى هذا الكلام، أن هذه السورة- أو السور- التي فيها ذكر الجنة والنار، ليست البداءة بها في أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزلت، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور، فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفيّ عن رسول الله ﷺ، كما تَقَدَّمَ تقرير ذلك، ولهذا لم ترخِّص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها فأملت عليه آي السور.

وقول عائشة: «لا يضرُّك بأيِّ سورةٍ بدأت» يدلُّ على أنه لو قدَّم بعض السور أو أخَّرَ، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعودٍ وهو في الصحيح، أنه عليه السلام قرأ في قيام الليل: البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

قال أبو الحسن ابن بطال: إنما يجب تأليف سوره في الرسم والخط خاصَّةً، ولا نعلم أن أحدًا قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة والقرآن ودَرْسِه، وأنه لا يحلُّ لأحدٍ أن يتلقَّن الكهف قبل البقرة، ولا الحج بعد الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: «لا يضرُّك أيه قرأتْ قبلُ»، وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعةٍ، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها.

قال: وأما ما رُوِيَ عن ابن مسعودٍ وابن عمر، أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسًا، وقالا: «إنما ذلك منكوس القلب»[1]، فإنما عَنِيَا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محظور.

(١)أخرجه عبد الرزاق (٧٩٤٧) وقال النووي في التبيان (ص: ٩٩): إسناده صحيح.

وعن ابن مسعودٍ قال، في بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: «إنهن من العِتاق الأُوَل، وهنَّ من تِلادي»[1].

المراد منه: ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعودٍ كالمصاحف العثمانية.

وقوله: «من العتاق الأُوَل» أي: من قديم ما نزل.

وقوله: «وهُنَّ من تلادي» أي: من قديم ما قَنَيْتُ وحَفِظْتُ، والتالِدُ في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارِفُ: حديثه وجديده.

عن البراء بن عازبٍ ﷺ أنه قال: «تعلمت {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قبل أن يقدم النبي ﷺ»[2].

المراد منه أن: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} سورة مكية نزلت قبل الهجرة.

عن شقيقٍ، عن عبد الله بن مسعودٍ، أنه قال: «لقد علمت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرؤهن اثنين اثنين في كل ركعةٍ» فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه، فقال: «عشرون سورةً من أول المفصَّل على تأليف ابن مسعودٍ، آخرهن من الحواميم، حم الدخان، وعم يتساءلون»[3].

هذا التأليف الذى عن ابن مسعودٍ غريبٌ، مخالف لتأليف عثمان ﷺ؛ فإن المفصل في مصحف عثمان ﷺ من سورة الحجرات إلى آخره، وسورة الدخان لا تدخل فيه بوجهٍ، والدليل على ذلك ما رواه أحمد عن أوس بن حذيفة، قال: «كنت في الوفد الذين أتوا النبيَّ ﷺ» فذكر حديثًا فيه: «أن النبي ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء، فمكث عنا ليلةً لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: (طَرَأَ عليَّ حزبٌ من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه) فسألنا أصحابَ رسول الله ﷺ حين أصبحنا، كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٩٤).

(٢)صحيح البخاري (٤٩٩٥).

(٣)صحيح البخاري (٤٩٩٦).

ثلاث سورٍ، وخمس سورٍ، وسبع سورٍ، وتسع سورٍ، وإحدى عشرة سورةٍ، وثلاث عشرة سورةٍ، وحزب المفصَّل من ق حتى يختم»[1]، وإسناده حسن.

فصل

فأما نَقْط المصحف وشكله، فيقال: إن أوَّل من أمر به: عبد الملك بن مروان، فتصدَّى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يَعمَر، ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحفٌ قد نقطه له يحيى بن يعمر.

وأما كتابة الأعشار على الحواشي، فينسب إلى الحجاج أيضًا. وقيل: بل أوَّل من فعله المأمون.

وحكى أبو عمرٍو الداني عن ابن مسعودٍ، أنه كره التعشير في المصحف، وكان يحكُّه، وكره مجاهد ذلك أيضًا. وقال مالك: لا بأس به بالحِبْر، فأما بالألوان المصبَّغة فلا، وأكره تعداد آي السور في أولها في المصاحف الأمهات، فأمَّا ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسًا. وقال قتادة: بدأوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا. وقال يحيى بن أبي كثيرٍ: أوَّل ما أحدثوا النقط، وقال: هو نورٌ له، ثم أحدثوا النقط عند آخر الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. ورأى إبراهيم النَّخعِيُّ فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها، وقال: قال ابن مسعودٍ: «لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه»[2]. قال أبو عمرو الدَّاني: ثم قد أَطْبَقَ المسلمون في ذلك في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأمهات وغيرها.

باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ

قال مسروق: عن عائشة، عن فاطمة: أسرَّ إليَّ رسول الله ﷺ: (أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنةٍ، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أُراه إلا حضر أجلي)[3].

---

(١)مسند أحمد (١٦١٦٦).

(٢)أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص: ٣١٧).

(٣)هو في صحيح البخاري معلقٌ قبل حديث (٤٩٩٧).

وعن ابن عباسٍ، قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلةٍ في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرِض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

وعن أبى هريرة، قال: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عامٍ مرةً، فعرض عليه مرتين في العام الذى قُبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشرًا، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبض فيه»[2].

المراد من معارضته له بالقرآن كل سنةٍ: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى؛ ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ توكيدًا واستثباتًا وحفظًا؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره عليه السلام على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك، ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله.

وعثمان رضي الله عنه جَمعَ المصحف الإمام على العرضة الأخيرة.

وخصَّ بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإيحاء كان فيه، ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثَمَّ كَثُر اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن.

باب القرَّاء من أصحاب النبي ﷺ

عن مسروقٍ، قال: ذَكر عبدُ الله بن عمروٍ عبدَ الله بن مسعودٍ، فقال: «لا أزال أُحبه، سمعت النبي ﷺ يقول: (خذوا القرآن من أربعةٍ: عبد الله بن مسعودٍ، وسالمٍ، ومعاذ بن جبلٍ، وأُبَيّ بن كعبٍ)[3].

هؤلاء أربعة: اثنان من المهاجرين الأولين: عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين، وكان يَؤُمُّ الناس قبل مقدِم النبي ﷺ في المدينة.

---

(١)صحيح البخاري (٤٩٩٧).

(٢)صحيح البخاري (٤٩٩٨).

(٣)صحيح البخاري (٤٩٩٩).

واثنان من الأنصار: معاذ بن جبلٍ، وأُبَيّ بن كعبٍ، وهما سيدان كبيران ﷺ أجمعين.

عن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله، فقال: «والله لقد أخذت من فِي رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورةً، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم» قال شقيق: فجلست في الحِلَق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادًّا يقول غير ذلك[1].

وعن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعودٍ سورة يوسف، فقال رجل: ما هكذا أُنْزِلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: (أحسنت) ووَجدَ منه ريح الخمر، فقال: «أتجترئ أن تكذِّب بكتاب الله وتشرب الخمر؟!» فجلده الحدَّ[2].

وعن مسروقٍ، قال: قال عبد الله: «والذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيمَ أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه»[3].

وهذا كله حقٌّ وصدقٌ، وهو من إخْبَارِ الرجل بما يعلم من نفسه، ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك؛ للحاجة، كما قال تعالى إخبارًا عن يوسف لما قال لصاحب مصر: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحًا وثناءً قولُ رسول الله ﷺ: (استقرئوا القرآن من أربعةٍ) فبدأ به، وقال ﷺ: (من أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِلَ، فليقرأ على قراءة ابن أم عَبْدٍ)[4]، وابنُ أم عبدٍ، هو عبد الله بن مسعودٍ، كان يُعْرَفُ بذلك.

وعن قتادة، قال: سألت أنس بن مالكٍ، مَن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: «أربعة كلهم من الأنصار: أُبَيّ بن كعبٍ، ومعاذ بن جبلٍ، وزيد بن ثابتٍ، وأبو زيدٍ»[5].

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٠٠).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٠١).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٠٢).

(٤)أخرجه أحمد (١٧٥) عن عمر ﷺ، وصححه ابن خزيمة (١١٥٦).

(٥)صحيح البخاري (٥٠٠٣).

وعن أنسٍ، قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعةٍ: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبلٍ، وزيد بن ثابتٍ، وأبو زيدٍ» قال: «ونحن ورثناه»[1].

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لا شك فيه أنه جمعه غير واحدٍ من المهاجرين أيضًا، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار، ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار وهم: أُبَيّ بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها، وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدرداء ومعاذ بن جبلٍ وزيد بن ثابتٍ وأبو زيدٍ، وكلهم مشهورون، إلا أبا زيدٍ هذا، فإنه غير معروفٍ إلا في هذا الحديث، وقد اختُلِفَ في اسمه، فقال الواقدي: اسمه قيس بن السَّكَن بن قيس بن زعوراء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنمٍ بن عدي بن النجار. وهذا القول هو الأصح؛ لأنه خزرجي؛ لأن أنسًا قال: «نحن ورثناه» وهم من الخزرج. وفي بعض الألفاظ: «وكان أَحَدَ عُمُومَتِي».

والدليل على أن من المهاجرين مَنْ جمع القرآن، أن الصِّدِّيقَ ﷺ قَدَّمَه رسول الله ﷺ في مرضه إمامًا على المهاجرين والأنصار، مع أنه قال: (يَؤُمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله) فلولا أنه كان اقرؤهم لكتاب الله لما قدَّمَه عليهم. هذا مضمون ما قرَّرَه الشيخ أبو الحسن عليُّ بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدفع ولا يُشك فيه. ومن المهاجرين الذين جمعوا القرآن: عثمان بن عفان، قد قرأه في ركعةٍ، وعلي بن أبي طالبٍ، يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أُنزل، ومنهم عبد الله بن مسعودٍ، ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، كان من السادات النجباء، والأئمة النقباء، وقد قُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا، ومنهم الحبر البحر: عبد الله بن عباسٍ، ترجمان القرآن، وقد قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباسٍ مرتين، أَقِفُهُ عند كلِّ آيةٍ وأساله عنها، ومنهم عبد الله بن عمروٍ، كما رواه النسائي وابن ماجه، عنه ﷺ أنه قال: «جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلةٍ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: (اقرأه في شهرٍ)[2].

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٠٤).

(٢)أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠١٠) وابن ماجه (١٣٤٦) وقال ابن حجرٍ في فتح الباري (٩/ ٥٢): إسناده صحيح.

عن ابن عباسٍ، أنه قال: قال عمر: «عليٌّ أقضانا، وأُبَيٌّ أقرؤنا، وإنا لندع من لحن أُبَيٍّ، وأُبَيٌّ يقول: أخذته من فِي رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشيءٍ» قال الله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: ١٠٦][(١)].

وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشيء يظنُّه صوابًا، وهو خطأٌ في نفس الأمر، ولهذا قال الامام مالك: ما من أحدٍ إلّا يؤخذ من قوله ويُرَدُّ، إلا قول صاحب هذا القبر. أي: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه.

باب نزول السكينة والملائكة عند القراءة

عن أُسيد بن الحضير، قال: «بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، اذ جالت الفرس، فسكتَ فسكنتْ، فقرأ فجالتِ الفرس، فسكتَ فسكنتْ، ثم قرأ فجالتِ الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشفق أن يصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حَدَّثَ النبي ﷺ فقال: (اقرأ يا ابن حضيرٍ، اقرأ يا ابن حضيرٍ) قال: فأشفقت أن تَطَأَ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي الى السماء، فإذا مثل الظُّلَّةِ فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: (وتدري ما ذاك؟) قال: لا، قال: (تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك، لو قرأتَ لأصبحتَ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم)[(٢)].

هكذا أورده البخاري معلقًا، وسياقه ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وفي الحديث المشهور الصحيح: (ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بُيُوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا تنزَّلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهُم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) رواه مسلم، عن أبى هريرة[(٣)].

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٠٥).

(٢)صحيح البخاري (٥٠١٨).

(٣)صحيح مسلم (٢٦٩٩).

ولهذا قال الله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨] جاء في بعض التفاسير أن الملائكة تشهده. وفي الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين نزلوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)[١].

باب من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدَّفتين

عن عبد العزيز بن رُفيعٍ، قال: دخلت أنا وشدَّاد بن معقلٍ على ابن عباسٍ، فقال له شداد بن معقلٍ: أَتَرَكَ النبي ﷺ من شيءٍ؟ قال: «ما تَرَكَ إلا ما بين الدَّفتين» قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه، فقال: «ما تَرَكَ إلا ما بين الدَّفتين»[٢].

ومعناه: أنه ﷺ ما ترك مالاً ولا شيئًا يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية: «ما تَرَكَ رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا شيئًا»[٣]، وفى حديث أبى الدرداء: (إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذه بحظٍّ وافرٍ)[٤]. ولهذا قال ابن عباسٍ: إنما ترك ما بين الدَّفتين، يعني: القرآن والسنة مفسرة له ومبيّنة وموضِّحة، أي: تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} الآية [فاطر: ٣٢] فالأنبياء عليهم السلام لم يُخْلَقُوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، وإنما خُلِقُوا للآخرة يدعون إليها ويرغِّبون فيها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (لا نورث ما تركنا فهو صدقة)[٥].

وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه، أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه لما سُئِلَ ميراث رسول

---

(١)صحيح البخاري (٥٥٥) صحيح مسلم (٦٣٢).

(٢)صحيح البخاري (٥٠١٩).

(٣)أخرجه البخاري (٢٧٣٩).

(٤)أخرجه أبو داود (٣٦٤١) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٤٥٩): «صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسَّنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا قال شيخنا: له طرق يُعرف بها أن للحديث أصلًا».

(٥)أخرجه البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨) عن عائشة رضي الله عنها.

الله ﷻ، فأَخْبَرَ عنه بذلِكَ، ووافقه على نَقْله عنه ﷺ غير واحدٍ من الصحابة، منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوفٍ وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباسٍ يقوله أيضًا عنه ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين.

باب فضل القرآن على سائر الكلام

عن أبى موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الذى يقرأ القرآن كمَثَلِ الأُتْرُجَّة؛ طعمُها طيبٌ وريحها طيبٌ، والذي لا يقرأ القرآن كالتَّمرة؛ طعمُها طيبٌ ولا ريحَ لها، ومَثَلُ الفاجر الذى يقرأ القرآن كَمَثَلِ الريحانة؛ ريحُها طيبٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كَمَثَلِ الحنظلة؛ طعمُها مُرٌّ ولا ريح لها)(١).

وجه مناسبة الباب لهذا الحديث أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودًا وعدمًا، فدَلَّ على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البَرِّ والفاجر.

عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (إنما أجلكم في أجلِ مَنْ خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومَثَلكم ومَثَل اليهود والنصارى كمثل رجلٍ استعمل عمَّالًا، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراطٍ، فعملت اليهود، فقال: مَنْ يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاءٍ، قال: هل ظلمتكم من حقِّكُم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئت)(٢).

مناسبته للترجمة أن هذه الأمة مع قصر مدتها، فَضَلَت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:١١٠]. وعن بهز بن حكيمٍ عن أبيه، عن جَدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أنتم توفون سبعين أمةً، أنتم خيرها وأكرمها على الله)(٣)، وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم، القرآن الذي شرَّفَه الله على كل كتابٍ أنزله، وجعله مهيمنًا عليه

(١)صحيح البخاري (٥٠٢٠).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٢١).

(٣)أخرجه الترمذي (٣٠٠١) وقال: حديث حسن.

وناسخًا له وخاتمًا له؛ لأن كل الكتب المتقدِّمَة نزلت إلى الأرض جملةً واحدةً، وهذا القرآن نزل منجَّمًا بحسب الوقائع؛ لشدة الاعتناء به وبمن أُنْزِلَ عليه.

وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثَمَّ إلى أن بُعِثَ محمد ﷺ ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو الشبه بآخر النهار، وأعطى المتقدمين قيراطًا قيراطًا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أي ربنا، ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا؟ فقال: هل ظلمتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي- أي: الزائد على ما أعطيتكم- أوتيه من أشاء، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢٨-٢٩].

باب الوصاة بكتاب الله

عن طلحة بن مصرفٍ، أنه قال: «سألت عبد الله بن أبى أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا، قال: قلت: فكيف كُتب على الناس الوصية أمروا بها، ولم يوصِ؟ قال: أوصى بكتاب الله عزَّ وجلَّ»[1].

وهذا نظير ما تقدَّمَ عن ابن عباسٍ، أنه ما ترك إلا ما بين الدفتين، وذلك أن الناس كُتب عليهم الوصية في أموالهم، كما قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة: ١٨٠] وأما هو ﷺ فلم يترك شيئًا يُورث عنه، وإنما ترك ماله صدقةً جاريةً من بعده، فلم يحتج إلى وصيةٍ في ذلك. ولم يوص الى خليفةٍ يكون بعده على التنصيص؛ لأن الأمر كان ظاهرًا من إشاراته وايماءاته إلى الصديق، ولهذا لما همَّ بالوصية إلى أبى بكر، ثم عدل عن ذلك فقال: (يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكرٍ)[2]، وكان كذلك، وإنما أوصى الناسَ باتباع كلام الله تعالى.

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٢٢).

(٢)أخرجه البخاري (٧٢١٧) ومسلم (٢٣٨٧) عن عائشة رضي الله عنها.

باب مَنْ لم يتغنَّ بالقرآن، وقوله الله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}

عن أبي هريرة، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: (لم يأذن الله لشيءٍ، ما أَذِنَ لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن)، وقال صاحب له: يريد يجهر به. قال سفيان: تفسيره: يستغني به[1].

ومعناه: أن الله تعالى ما استمع لشيءٍ كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته ويحسِّنُها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت؛ لكمال خلقهم، وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك.

وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلِّهم برِّهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رضى الله عنها: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات»[2]، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} الآية، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ، كما دلَّ عليه هذا الحديث العظيم.

والأَذَن الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ١-٥]. أي: استمعت لربها وحُقَّت، أي: وحُق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأَذَن ههنا، هو: الاستماع.

وروى ابن ماجه بسندٍ جيِّدٍ، عن فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: (للهُ أشد أَذَنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنَةِ إلى قَيْنَتِه)[3].

وقول سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغنِّي: يستغني به، فإن أراد أنه يستغني به عن الدنيا- وهو الظاهر من كلامه- فخلاف الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسَّره بعض رواته بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها. قال حرملة: سمعت ابن عُيَيْنَةَ يقول: معناه: يستغنى به، فقال لي

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٢٣).

(٢)أخرجه البخاري معلقًا قبل حديث (٧٣٨٦) ووصله النسائي (٣٤٦٠) بلفظ: «الحمد لله...».

(٣)سنن ابن ماجه (١٣٤٠).

الشافعي: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانَى، إنما هو يتحزَّن ويترنَّمُ به. قال حرملة: وسمعت ابن وهبٍ يقول: يترنَّمُ به، وهكذا نقل المزني والربيع عن الشافعي رحمه الله.

وعلى هذا فتصدير البخاري الباب بقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: ٥١] فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذُكِرَت ردًّا على الذين سألوا آياتٍ تدل على صدقه، حيث قال: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [العنكبوت: ٥٠-٥١]، ومعنى ذلك: أو لم يكفهم آية دالَّة على صدقك: إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أُمِّي؟ {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت: ٤٨]، أي: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين، فأين هذا من التغنِّي بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عمَّا عداه من أمور الدنيا؟ فعلى كل تقديرٍ تصدير الباب بهذه الآية فيه نظر.

فصل

في إيراد أحاديث في معنى الباب، وذكر أحكام التلاوة بالأصوات

عن عقبة بن عامرٍ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن في المسجد نتدارس القرآن، قال: (تعلموا كتاب الله واقتنوه) قال: وحسبت أنه قال: (وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده لهو اشد تفلُّتًا من المخاض من العُقُل)[١].

وعن أبي لُبابة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن) قيل لابن أبى مليكة[٢]: يا أبا محمدٍ، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسِّنه ما استطاع. رواه أبو داود[٣].

(١)أخرجه النسائي في الكبرى (٧٩٨٠) وصححه ابن حبان (١١٩).

(٢)أحد رواة الحديث.

(٣)سنن أبي داود (١٤٧١).

وفُهم من هذا أن السلف ﷺ، إنما فهموا من التغنّي بالقرآن إنما هو: تحسين الصوت به وتحزينه، كما قاله الأئمة رحمهم الله. ويدل على ذلك أيضًا ما رواه أبو داود، عن البراء بن عازبٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: (زيّنُوا القرآن بأصواتكم)[1]، وإسناده جيد.

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن تطريبه وتحزينه والتَّخَشُّع به، كما قال أبو موسى: قال لي رسول الله ﷺ: (لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة) قلت: «أما والله لو علمت أنك تسمع قراءتي، لحبَّرتُها لك تحبيرًا»[2]، فدَلَّ على جواز تعاطي ذلك وتكلفه.

وأخرج ابن ماجه، عن عائشة، قالت: أبطأتُ على رسول الله ﷺ ليلةً بعد العشاء، ثم جئت فقال: (أين كنتِ؟) قلت: كنت أسمع قراءة رجلٍ من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحدٍ، قالت: فقام فقمت معه حتى أستَمَعَ له، ثم التفت إليَّ فقال: (هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل في أمتي مثل هذا)[3]، وإسناده جيد.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعمٍ، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا، أو قراءةً منه»[4]. وفي بعض ألفاظه: «فلما سمعته قرأ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} خِلْتُ أن فؤادي قد انصدع»، وكان جبير لمَّا سمع هذا بعدُ مشركًا على دين قومه، وناهيك بِمَنْ تؤثِّرُ قراءته في المشرك المصر على الكفر، فكان هذا سبب هدايته، ولهذا كان أحسن القراءات ما كان عن خشوعٍ من القلب، كما روي عن طاوسٍ، قال: «أحسن الناس صوتًا بالقرآن أخشاهم لله»[5]، فالمطلوب شرعًا، إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تَدَبُّرِ القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة.

---

(١)سنن أبي داود (١٤٦٨).

(٢)أخرجه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣) وشطره الأخير أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٠٤) وابن حبان (٧١٩٧).

(٣)سنن ابن ماجه (١٣٣٨).

(٤)صحيح البخاري (٣٠٥٠) صحيح مسلم (٤٦٣)

(٥)أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٦٥).

فأما الأصوات بالنغمات المحدثة، المركبة على الأوزان، والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن يُنَزَّه ويُجل ويعظَّم عن هذا، ونصَّ الأئمة –رحمهم الله– على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش، الذى يزيد بسببه حرفًا أو ينقص حرفًا، فقد اتفق العلماء على تحريمه.

باب اغتباط صاحب القرآن

عن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالًا، فهو يتصدق به آناء الليل والنهار)[1].

وعن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (لا حسد إلّا في اثنين: رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتني أوتيت ما أُوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالًا فهو يُهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل)[2].

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطةٍ، وهي حُسنُ الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، يقال: غبطَه يغبِطه غبطًا، إذا تمنَّى مثل ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم، وهو تمنّي زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا، وهذا مذموم شرعًا مهلكٌ، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام.

والحسد الشرعي الممدوح هو تمنّي حال مثل ذاك الذى هو على حالة سارة، ولهذا قال ﷺ: (لا حسد إلا في اثنين) فذكر النعمة القاصرة وهو تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩] وعن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنافس بينكم إلّا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتَّبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانًا فأقوم به كما يقوم به،

(١)صحيح البخاري (٥٠٢٥).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٢٦).

ورجل أعطاه الله مالاً فهو ينفق ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانًا فأتصدق به)[1].

باب خيركم منْ تعلَّم القُرْآن وعلَّمه

عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) وأَقرأَ أبو عبد الرحمن في إِمرةِ عثمان ﷺ حتى كان الحجاج، قال: «وذلك الذي أقعدني مقعدي هذا»[2].

هذه صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمَّلُ في أنفسهم المُكَمِّلون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون ولا يتركون أحدًا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٦]، في أصحِّ قولي المفسرين في هذا: هو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن، مع نأيهم وبُعدهم عنه أيضًا، فجمعوا بين التكذيب والصدِّ، كما قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [الأنعام: ١٥٧] فهذا شأن شرار الكفار، كما أن شأن الأخيار الأبرار أن يكْمُل في نفسه، وأن يسعى في تكْمِيلِ غيره، كما قال ﷺ: (خيْرُكُم منْ تعلَّم القُرآنَ وعلَّمه)، وكما قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله، سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة إلى الله تعالى، من تعليم القرآن والحديث والفقه، وغير ذلك مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحًا، وقال قولاً صالحًا أيضًا، فلا أحد أحسن حالاً من هذا.

---

(١)مسند أحمد (١٦٩٦٦) قال في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٨): رواه أحمد كتابةً، وفيه سليمان بن موسى، وفيه كلام، وقد وثقه جماعة.

(٢)صحيح البخاري (٥٠٢٧).

وقد كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رَغبَ في هذا المقام، فقعد يعلِّمُ الناس من إمارة عثمان إلى أيام الحجاج. قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلم فيه القرآن سبعين سنةً، رحمه الله وأثابه، وآتاه ما طلبه ورامَه، آمين.

عن سهل بن سعدٍ، قال: «أتَتِ النبي ﷺ امرأةٌ، فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله، فقال: (ما لي في النساء من حاجةٍ)، فقال رجل: زوجنيها؟ قال: (أعطها ثوبًا) قال: لا أجد، قال: (أعطها ولو خاتمًا من حديدٍ) فاعتَلَّ له، فقال: (ما معك من القرآن؟) قال: كذا وكذا، قال: (قد زوجتكها بما معك من القرآن)[1].

غرض البخاري أن هذا الرجل تعلَّم الذى تعلَّمه من القرآن، وأمره النبي ﷺ أن يُعَلِّمَ تلك المرأة، ويكون ذلك صداقًا لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، هل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقًا؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصًّا بذلك الرجل؟ وما معنى قوله ﷺ: (زوجتكها بما معك من القرآن)؟ أبسبب ما معك، كما قاله أحمد بن حنبلٍ: نكرمك بذلك، أو بعوض ما معك، وهذا أقوى؛ لقوله في صحيح مسلم[2]: (فعلمها) وهذا هو الذي أراده البخاري ههنا.

باب القراءة عن ظهر قلب

حديث سهل بن سعدٍ- الذى تقدَّمَ، وفيه- **أنه ﷺ قال للرجل: (فما معك من القرآن؟) قال: معي سورة كذا وسورة كذا؛ لسورٍ عدها، قال: (أتقرؤهن عن ظهر قلبٍ؟) قال: نعم، قال: (اذهب فقد ملكتُكَها بما معك من القرآن)**[3].

هذه الترجمة من البخاري رحمه الله مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلبٍ أفضل، ولكن الذي صرَّح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف، وهو عبادةٌ كما صرَّح به غير واحدٍ من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم

(١)صحيح البخاري (٥٠٢٩).

(٢)صحيح مسلم (١٤٢٥).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٣٠).

لا ينظر في مصحفه، قال ابن مسعودٍ: «أديموا النظر في المصحف»[1]، وكان ﷺ إذا اجتمع اليه إخوانه؛ نشروا المصحف، فقرؤوا، وفسَّرَ لهم. وإسناده صحيح، وعن ابن عباسٍ، عن عمر، أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف، فقرأ فيه، وقال ابن عمر: «إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف، وليقرأ»، وعن خيثمة، قال: «دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف، فقال: هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة»[2].

فهذه الاثار تدل على أن هذا أمر مطلوب؛ لئلا يُعَطَّلَ المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيستذكر منه، أو تحريف كلمةٍ أو آيةٍ، أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال.

فأما تلقين القرآن، فمن فم الملقِّنِ أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على الأداء، كما أن المشاهد من كثيرٍ ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدَّى الحال إلى هذا مُنع منه إذا وجد شيخًا يُوقفه على ألفاظ القرآن، فأما عند العجز عمَّن يلقِّن، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فاذا قرأ في المصحف والحالة هذه فلا حرج عليه، ولو فُرِضَ أنه قد يُحَرِّفُ بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه.

وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف، فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظرًا أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف، قال الشيخ أبو زكريا النووي رحمه الله في التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلَهم محمول على هذا التفصيل.

باب استذكار القرآن وتعاهده

(١)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٠٤) قال ابن حجرٍ في فتح الباري (٩/ ٧٨): إسناده صحيح.

(٢)أخرج هذه الآثار أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٠٥).

عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (إنما مَثَلُ صاحب القرآن كمَثَلِ صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)[١].

وعن عبد الله، قال: قال النبي ﷺ: (بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيتُ آية كَيتَ وكَيتَ، بل نُسِّي، واستذكروا القرآن؛ فإنه أشدُّ تفصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَم)[٢].

وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفصِّيًا من الإبل في عُقُلِهَا)[٣].

وعن عقبة بن عامرٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: (تعلَّمُوا كتاب الله، وتعاهدوه، وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلتًا من المخاض في العُقُل)[٤].

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب في كثرة تلاوة القرآن، واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرِّضه حافظُة للنسيان؛ فإن ذلك خطأ كبير، نسأل الله العافية منه، وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٤-١٢٦]. وهذا الذي قاله هذا وإن لم يكن هو المراد جميعه فهو بعضه؛ فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به، فيه تهاون كبير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه، ولهذا قال ﷺ: (تعاهدوا القرآن) وفى لفظٍ: (استذكروا القرآن؛ فإنه أشد تفصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَم) التفصي: التَّخَلُّص، يقال: تفصَّى فلان من البلية، إذا تخلَّصَ منها، ومنه: تفصَّى النوى من الثمرة، إذا تخلص منها، أي: أن القرآن أشد تفلتًا من الصدور من النَّعَم إذا أُرسلت من غير عقالٍ. قال الضحاك بن مزاحم: «ما من أحدٍ تعلم القرآن ثم نسيه، إلا بذنبٍ يحدثه؛ لأن الله

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٣١).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٣٢).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٣٣).

(٤)أخرجه النسائي في الكبرى (٧٩٨٠) وصححه ابن حبان (١١٩).

تعالى يقول: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب»[١].

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يكره للرجل أن يمر عليه أربعون يومًا لا يقرأ فيها القرآن.

باب القراءة على الدابة

عن عبد الله بن مغفلٍ ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح»[٢].

وهذا أيضًا له تعلُّق بما تَقَدَّمَ من تعاهُد القرآن وتلاوته سفرًا وحضرًا.

باب تعليم الصبيان القرآن

عن سعيد بن جبيرٍ، قال: «إن الذى تدعونه المفَصَّل هو المحكَم» قال: وقال ابن عباسٍ: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم»[٣].

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباسٍ، قال: «جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ» فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصَّل»[٤].

فيه دلالة على جواز تعلُّم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباسٍ كان عمره حين موت رسول الله ﷺ عشر سنين، وقد روى البخاري[٥] أنه قال: «توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون، وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم» فيحتمل أنه احتلم لعشر سنين؛ جمعًا بين هذه الرواية وتلك، ويحتمل أنه تجوَّز في هذه الرواية بذكر العشر وترك ما زاد عليها من الكسر. وعلى كل تقديرٍ، ففيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصِّبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبًّا أو واجبًا؛ لأن الصبي إذا تعلَّم

(١)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ٢٠٢).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٣٤).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٣٥).

(٤)صحيح البخاري (٥٠٣٦).

(٥)صحيح البخاري (٦٢٩٩).

القرآن بلَغَ وهو يعرف ما يصلي به. وحفظُه في الصِّغرِ أولى من حفظِه كبيرًا، وأشد عُلوقًا بخاطره، وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود في حال الناس. واستحبَّ عمر بن الخطاب ﷺ أن يلقَّن خمس آياتٍ[1]. رويناه عنه بسندٍ جيدٍ.

باب نسيان القرآن، وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا؟ وقول الله: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}

عن عائشة، قالت: لقد سمع النبي ﷺ رجلًا يقرأ في المسجد، فقال: (يرحمه الله، لقد أذكرني آية كذا وكذا من سورة كذا) وفي روايةٍ: **(أسقطتهن من سورة كذا وكذا)**[2].

عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيتُ كَيتَ وكَيتَ، بل هو نُسِّيَ)[3].

وفي هذا الحديث والذي قبله دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقصٍ له، إذا كان بعد الاجتهاد والحرص.

وفي حديث ابن مسعودٍ أدبٌ في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت كذا؛ فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد تَصْدُرُ عنه أسبابه، من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله، ولهذا قال: (بل هو نُسِّيَ) مَبْنِيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، وأدبٌ أيضًا في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [الكهف: ٢٤]، وهو -والله أعلم- من باب المجاز الشائع بذكر المسَبَّبِ وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سببٍ قد يكون ذنبًا، فأمر الله تعالى بذكره؛ ليذهب الشيطان

---

(١)أخرجه أبو نُعيمٍ في حلية الأولياء (٩/ ٣١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧) ولفظه: «تعلموا القرآن خمسًا خمسًا» وفي علل الحديث لابن أبي حاتم (٤/ ٧٠٢): قال أبو زرعة: «أبو نعيم رواه عن أبي خلدة، عن أبي العالية، لم يذكر فيه عمر، وهو الصحيح». وقال ابن حجرٍ في فتح الباري (٩/ ٧٧): أخرج ابن أبي داود عن أبي عبد الرحمن السلمي، أنه كان يُقرئ القرآن خمس آياتٍ خمس آياتٍ، وأسند من وجهٍ آخر عن أبي العالية مثل ذلك، وذكر أن جبريل كان ينزل به كذلك، وهو مرسلٌ جيدٌ.

(٢)صحيح البخاري (٥٠٣٧).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٣٩).

عن القلب، كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تُذهِب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان، انزاح فحصل الذكر للشيء بسبب ذكر الله تعالى.

باب من لم ير بأسًا أن يقول: سورة البقرة وسورة كذا وكذا

عن أبى مسعودٍ الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلةٍ كفتاه[1].

وفى الصحيحين عن ابن مسعودٍ أنه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: «هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة»[2].

وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا أن يُقَال: إلا السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، ولا شكَّ أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحَّت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم.

باب الترتيل في القراءة

وقوله عز وجل: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤] وقوله: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: ١٠٦]، وما يكره أن يُهذَّ كهذِّ الشِّعر. يُفْرَقُ: يفصلُ. قال ابن عباسٍ {فَرَقْنَاهُ}: فصلناه.

عن عبد الله، قال: غدونا على عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصَّل البارحة، فقال: «هذًّا كهذِّ الشِّعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهنَّ النبي ﷺ، ثماني عشرة سورةً من المفصَّل، وسورتين من آل حم»[3].

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٤٠).

(٢)صحيح البخاري (١٧٤٧) صحيح مسلم (١٢٩٦).

(٣)صحيح البخاري (٥٠٤٣).

وعن عائشة، أنه ذُكر لها أن ناسًا يقرؤون القرآن في الليل مرةً أو مرتين، فقالت: «أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمرُّ بآيةٍ فيها تخوُّفٌ إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآيةٍ فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه»[١].

وعن ابن عباسٍ في قوله تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، كان مما يُحَرِّكُ به لسانه وشفتيه فيشتد عليه»[٢].

فيه وفي الذي قبله دليلٌ على استحباب ترتيل القراءة والترسُّل فيها من غير هذرمةٍ ولا سرعةٍ مفرطةٍ، بل بتأملٍ وتفكرٍ، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩].

وعن عبد الله بن عمروٍ، عن النبي ﷺ قال: (يُقَالُ لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آيةٍ تقرؤها)[٣].

وعن إبراهيم، قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: «فداك أبي وأمي، رتِّلْ؛ فإنه زين القرآن» قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن.

وعن أبي جمرة، قال: قلت لابن عباسٍ: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاثٍ، فقال: «لأن أقرأ البقرة في ليلةٍ فَأَدَّبَرَهَا وأُرَتِّلَهَا؛ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ كما تقول»[٤].

باب مد القراءة

عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالكٍ عن قراءة النبي ﷺ، فقال: «كان يَمُدُّ مَدًّا»[٥].

---

(١)أخرجه أحمد (٢٤٦٠٩) وقال في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٢): «فيه ابن لهيعة، وفيه كلام».

(٢)صحيح البخاري (٥٠٤٤).

(٣)أخرجه أحمد (٦٧٩٩) وصححه الترمذي (٢٩١٤) وابن حبان (٧٦٦).

(٤)أخرجه والذي قبله أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٥٧).

(٥)صحيح البخاري (٥٠٤٥).

وعن قتادة قال: سُئِلَ أنس بن مالكٍ: كيف كان قراءة النبي ﷺ؟ فقال: «كانت مَدًّا، ثم قرأ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يَمُدُّ ببسم الله، ويَمُدُّ بالرحمن، ويَمُدُّ بالرحيم»[1].

وفي معناه أن أم سلمة، نعتَتْ قراءة رسول الله ﷺ مُفَسَّرَةً حرفًا حرفًا[2].

باب الترجيع

عن عبد الله بن مغفَّلٍ، قال: «رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته– أو جمله– يسير به، وهو يقرأ سورة الفتح– أو من سورة الفتح– قراءةً لَيِّنَةً، وهو يُرَجِّعُ»[3].

الترجيع: هو الترديد في الصوت، كما جاء أيضًا في البخاري، أنه جعل يقول: «آ آ آ» وكأنَّ ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدلَّ على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك، ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف؛ بل ذلك مغتفر؛ للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به مع إمكان تأخير ذلك، والصلاة إلى القبلة.

باب حُسنُ الصوتِ بِالقرَاءَة

عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال: (يا أبا موسى، لقد أُوتِيتَ مزمارًا من مزامير آل داود)[4].

باب مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ القِرَاءَةَ مِنْ غَيْرِهِ

عن عبد الله قال: قال لي النبي ﷺ: (اِقرأ عليَّ القرآن) قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: (إني أحب أن أسمعه من غيرى)[5].

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٤٦).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٩٢٣) وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣)صحيح البخاري (٥٠٤٧).

(٤)صحيح البخاري (٥٠٤٨).

(٥)صحيح البخاري (٥٠٤٩).

باب قول المقرئ للقارئ: حَسْبُكَ

عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ (اقرأ عليَّ) فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم) فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا} قال: (حسبك الآن) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[1].

باب في كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنُ؟ وقول الله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}

عن سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن؟ فلم أجد سورةً أقل من ثلاث آياتٍ، فقلت: لا ينبغي لأحدٍ أن يقرأ أقل من ثلاث آياتٍ. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة، عن أبي مسعودٍ، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر قول النبيِّ ﷺ (أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه)[2].

ما قاله عبد الله بن شُبرمة– فقيه الكوفة في زمانه– استنباطٌ حسنٌ.

عن عبد الله بن عمروٍ، قال: «أنكحني أبي امرأةً ذات حسبٍ، فكان يتعاهد كَنَّتَهُ، فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجلٍ، لم يطأ لنا فراشًا، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: (ألقني به) فلقيته بعد، فقال: (كيف تصوم؟) قال: كل يومٍ، قال: (كيف تختم؟) قال: كل ليلةٍ، قال: (صم كل شهرٍ ثلاثةً، واقرأ القرآن في كل شهرٍ) قلت: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: (صم ثلاثة أيامٍ في الجمعة) قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: (أفطر يومين وصم يومًا) قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: (صم، أفضل الصوم، صوم داود: صيام يومٍ وإفطار يومٍ، واقرأ في كل سبعِ ليالٍ مرةً) فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يَقرأ على بعض أهله السُّبع من القرآن بالنهار، والذى

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٥٠).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٥١).

يقرأ يعرضه بالنهار؛ ليكون أخَفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن؛ كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبيَّ ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاثٍ، وفي خمسٍ، وأكثرهم على سبعٍ[1].

كان ابن مسعودٍ ﷺ يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة، وكان أُبَيُّ بن كعبٍ يختم القرآن في كل ثمانٍ، وكان تميم الداري يختمه في كل سبعٍ[2].

ودلَّت أحاديث أُخَر على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما قال سعد بن المنذر الأنصاري: يا رسول الله، اقرأ القرآن في ثلاثٍ؟ قال: (نعم) فكان يقرؤه حتى توفي[3]، وإسناده جيد قوي حسن، وعن ابن مسعودٍ، أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاثٍ[4]. وإسناده صحيح.

وعن عبد الله بن عمروٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاثٍ) قال الترمذي: حسن صحيح[5].

وعن معاذ بن جبلٍ، أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاثٍ[6]. وهو صحيح.

وقد كره غير واحدٍ من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاثٍ، كما هو مذهب أبي عُبيدٍ وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الخلف أيضًا.

وعن عبد الرحمن بن شِبلٍ مرفوعًا: (اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به)[7]، قوله: (لا تغلو فيه) أي: لا تُبالغوا في تلاوته بسرعةٍ في أقصر مدةٍ؛ فإن ذلك ينافي التدبر غالبًا، ولهذا قابله بقوله: (ولا تجفوا عنه) أي: لا تتركوا تلاوته.

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٥٢).

(٢)أخرج هذه الآثار أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٠٥).

(٣)أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٤٧) قال في مجمع الزوائد (٧/ ١٧١): «فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف».

(٤)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٨٠).

(٥)جامع الترمذي (٢٩٤٩).

(٦)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٨٠).

(٧)أخرجه أحمد (١٥٦٦٨) وقال في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٨): رجاله ثقات. وقال في فتح الباري (٩/ ١٠١): سنده قوي.

فصل

وقد ترخَّصَ جماعات من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ فعن ابن سرين، قال: قالت نائلة بنت الفُرافصة الكلبية، حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه، إن تقتلوه أو تدعوه؛ فقد كان يحيى الليل كله بركعةٍ يجمع فيها القرآن[1]. وهو حسن، وعن ابن سيرين، أن تميمًا الداري قرأ القرآن في ركعةٍ، وعن سعيد بن جبيرٍ، أنه قال: «قرأت القرآن في ركعةٍ في البيت» يعنى: الكعبة. وعن علقمة، أنه قرأ القرآن في ليلةٍ، طاف بالبيت أسبوعًا، ثم أتى المقام فصلى عنده، فقرأ بالطُّوَل، ثم طاف بالبيت أسبوعًا، ثم أتى المقام فصلى عنده، فقرأ بالمئين، ثُمَّ طاف بالبيت أسبوعًا، ثمَّ أتى المقام فصلَّى عنده فقرأ بقية القرآن[2]. وهذه كلها أسانيد صحيحة.

ومن أغرب ما ههنا: أن سُليم بن عِترٍ التُّجِيبِيَّ كان يختم القرآن في ليلةٍ ثلاث مرَّاتٍ، ويجامعُ ثلاث مراتٍ، فلمَّا مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لتُرضي ربَّك وترضي أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يُلِمُّ بأهله، ثم يغتسل ويعود، فيقرأ حتى يختم، ثم يُلمّ بأهله، ثم يغتسل ويعود، فيقرأ حتى يختم، ثم يُلِمُّ بأهله، ثم يغتسل ويخرج إلى صلاة الصبح[3].

قلت: كان سُليم بن عِترٍ تابعيًّا جليلًا ثقةً نبيلًا، وكان قاضيًا بمصر أيام معاوية وقاصَّها.

وروي عن مجاهدٍ، أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن عليٍّ الأزدي أنه يختم فيما بين المغرب والعشاء كل ليلةٍ من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعدٍ قال: كان أبي يحتبي، فما يحلُّ حَبْوَتَه حتى يختم القرآن.

---

(١)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٨١).

(٢)أخرج هذه الآثار أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٨٢).

(٣)أخرجه أبو عُبيدٍ في فضائل القرآن (ص: ١٨٢).

وروي عن منصور بن زاذان، أنه كان يختم فيه بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلًا.

وعن الإمام الشافعي أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمةً.

وعن أبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمةً.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختماتٍ، وبالليل أربع ختماتٍ، وهذا نادر جدًّا.

فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تَقَدَّمَ، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة.

قال الشيخ أبو زكريا النواوي في كتابه التبيان بعد ذكر طرفٍ مما تَقَدَّمَ: والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليَقْتَصِر على قدرٍ يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولًا بنشر العلم وغيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدرٍ لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرْصَدٌ له، وإن لم يكن من هؤلاء، فليستكثر ما أمكنه من غير خروجٍ إلى حَدِّ الملل والهذرمة.

باب البكاء عند قراءة القرآن

عن ابن مسعودٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرأ عليَّ) قلت: اقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري) قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا} قال لي: (كُفَّ) أو: (أمسك) فرأيت عينيه تذرفان[1].

باب من راءى بقراءة القران أو تأكَّلَ به أو فخر به

(١)صحيح البخاري (٥٠٥٥).

عن عليٍّ ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يأتي في آخر الزمان قومٌ حُدَثَاءُ الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة)[1].

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به، كالأُتْرُجَّةِ طعمُها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به، كالتَّمْرَةِ طعمها طيب، ولا ريح لها، ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن، كالرَّيْحَانة ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذى لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مُرٌّ –أو خبيث– وريحها مُرٌّ)[2].

المذكورون في حديث عليٍّ هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في روايةٍ أخرى: (يحقِرُ أحدُكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم)، ومع هذا أمر بقتلهم؛ لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقادٍ غير صالحٍ، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩]

والمنافق مُشَبَّه بالريحانة التي لها ريحٌ ظاهر وطعمها مُرٌّ، هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}.

باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم

(١)صحيح البخاري (٥٠٥٧).

(٢)صحيح البخاري (٥٠٥٩).

عن جندب بن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه)[1].

المعنى أنه ﷺ أرشد وحضَّ أمته على تلاوة القرآن، إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته متفكرة متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها؛ فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك، كما ثبت في الحديث أنه قال ﷺ: (اكلَفُوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا)[2]، وقال: (أَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى الله ما دام عليه صاحبه)[3]، وفي اللفظ الآخر: (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ).

عن ابن مسعودٍ، أنه سمع رجُلًا يقرأ آيةً سمع النبي ﷺ قرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت إلى النبي ﷺ فقال: (كلاكما محسنٌ فاقرآ) أكبر علمي قال: **(فإنَّ مَنْ قبلكم اختلفوا فيه، فأهلكهم الله عز وجل)**[4].

فيه النهي عن الاختلاف في القراءة، والمنازعة في ذلك، والمِراء فيه.

وهذا آخر ما أورده البخاري رحمه الله في كتاب فضائل القرآن، ولله الحمد والمنة.

---

(١)صحيح البخاري (٥٠٥٩).

(٢)أخرجه البخاري (٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣)أخرجه مسلم (٧٨٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤)صحيح البخاري (٥٠٦٢).